حدود الحوار الثقافي بين الشّعوب ومحاذير العولمة

أ. إبراهيم بوخالفة*

*المركز الجامعي مرسلي عبد الله بتيبازة/ الجزائر
Boukhalfa.brahim@gmail.com

ملخص :

نعيش اليوم على تخوم عالم متعدّد الأقطاب، منفتح الحدود، يشتدّ فيه التزاحم بالمناكب على مناطق النّفوذ العالمي والهيمنة على الشّعوب الأقلّ تطوّرا، لقد تلاشتْ الحدود القوميّة والإيديولوجيّة بين الشّرق والغرب، ولم تصمد الحواجز الإسمنتيّة التي صمّمتها فلسفات الحداثة الصّلبة أمام أفكار التحرّر والليبراليّة الجديدة والعولمة الثقافيّة والاقتصاديّة.

وأمام هذا الواقع ما بعد الحداثي ألفينا أنفسنا أمام حداثة سائلة، حمّالة لقيم التشيء والتشظّي الهويّاتي، والحروب الخاطفة والهويّات القاتلة التي تحاول أن تتدارك نفسها، لانتشالها من العدم والتلاشي.

يبحثُ العرب اليوم الأدوات الثقافيّة والفلسفيّة القادرة على مواجهة رياح العولمة التي تهدّد بابتلاع الثقافات الأقلّويّة، وأمام توحّش الليبراليّة الغربيّة، يتعيّنُ على العرب أن يستوحوا مقوّماتهم الحضاريّة التي كانت بالأمس القريب مهيمنة على العالم، وعليهم أن يستحضروا قيمهم ومقدّساتهم التي تمنحهم التميّز عن أغيارهم، وخارج هذا الإطار يتعذّر على العرب أن يستعيدوا مكانتهم التاريخيّة التي يستحقّونها.

يوجد اليوم تيّار تغريبي يدعو إلى الاندماج في الحضارة الغربيّة بكلّ مكوناتها من أجل تحقيق التعايش السلمي بين الشّرق والغرب، بينما يدعو المحافظون العرب إلى العودة إلى قيم الأسلاف، والتعايش مع الآخرين على أساس عالم متعدّد الثقافات، يقبل مبدأ الاختلاف الثقافي.

كيف السبيل إلى تحقيق التعايش السّلمي بين الشّعوب والأمم ذات القوميّات والإثنيّات المختلفة؟ كيف يتمكّن العرب من تجاوز سلطة الامبراطوريّات الغربية بشرقها وغربها؟ كيف يمكن تجاوز محاذير الحدود المخترقة، والفضاءات الهجينة، تلك هي انشغالات هذه الدّراسة، التي سنسائل فيها كلاّ من تودوروف، وكلود ليفي شتراوس وإدوارد سعيد، وغيرهم من فلاسفة الآخريّة.

كلمات مفتاحية: المثاقفة؛ الحوار الثقافي؛ الآخـر؛ الهيمنة؛ الامبرياليّة.

The Limits of Cultural Dialogue Between people and the Caveats of Globalization

Ibrahim Boukhalfa
Marsali Abdullah Bitibazah University Center/ Algeria

ABSTRACT:

Today, the world lives on the outskirts of a multipolar world with open borders, in which there is intense competition over areas of global influence and hegemony over less developed people. The national and ideological boundaries between East and West have disappeared, and the concrete barriers designed by the solid philosophies of modernity did not stand against the ideas of liberation, neoliberalism, and cultural and economic globalization.

In the face of this postmodern reality, there is a fluid modernity that bears the values of objectification and identity fragmentation, blatant wars and deadly identities that try to rectify themselves, to lift them out of nothingness and fading away..

Today, Arabs are searching for cultural and philosophical tools capable of confronting the winds of globalization that threaten to engulf minority cultures. In the face of the brutality of Western liberalism, the Arabs must be inspired by their civilizational foundations that were dominant in the world recently, and they must evoke their values and sanctities that grant them distinction from others. Outside this framework, it is impossible for the Arabs to regain the historical position they deserve.

Today, there is a Westernization current that calls for integration into Western civilization with all its components in order to achieve peaceful coexistence between East and West. While the Arab conservatives call for a return to the values of the ancestors, and coexistence with others on the basis of a multicultural world that accepts the principle of cultural difference.

How is the way to achieve peaceful coexistence between people and nations of different nationalities and ethnicities? How can the Arabs transcend the authority of the western empires in their east and west? How can the dangers of breached borders and hybrid spaces be over-

come? These are the preoccupations of this study, in which it will question Todorov, Claude Levi-Strauss, Edward Said, and other philosophers.

KEY WORDS:

Acculturation, cultural dialogue; the other; dominance; imperialism.

مقدّمة:

يكثرُ اللّغط اليوم حول حوار الثقافات والعولمة، والقيم الكونيّة والحضارة العالميّة، والصّراع العالمي على النفوذ وعلى السيادة، ولا نعرفُ بعد موقع الأمّة العربيّة من هذه الآفاق والمحاورات، التي تجري مفاعيلها على صعيدين، صعيد فلسفي، ابستيمولوجي، وهو الذي يعنينا في هذا البحث، وصعيد سياسي، لا سبيل إلى تجاهله لكونه مؤثّرا بشكل لا شفاء منه.

بعد سقوط جدار برلين، وانهيار المعسكر الشرقي وتفكّكه، يحلو للبعض أن يتحدّثُ عن توجّه حثيث نحو تشميل الثقافة وهيمنة الليبيراليّة الجديدة، وسيادة الفكر الرأسمالي، ليستأنف الغرب مسيرته نحو مشروع التّنوير الذي توقّف عندما انقسم العالم إلى قطبين بينهما حائطٌ جليدي، غير أنّ الذي يتزعّم مشروع التّنوير هو أمريكا وليستْ أوروبا؛ ولن يختلف الأمر كثير ما دام الأمريكيّون هم من أصول أوروبيّة مهاجرة في الماضي القريب.

مشروع التّنوير الذي نتحدّث عنه هو انصهار كلّ شعوب العالم الحرّ ضمن مجتمعٍ دولي واحد، بزعامة الغرب، تسوده ثقافة غربية وقيم كونيّة هي من حيثُ المبدأ أوروبيّة، يتعلّق الأمر بالدّيمقراطيّة والعلمانيّة وحقوق المرأة، وحريّة السّوق، وما شاكل ذلك من مبادئ المجتمعات الأوروبيّة المنبثقة عن حقبة التّنوير. ونحن عندما نتحدّثُ عن حوار الثقافات ومبدأ التعايش السلمي بين الشّعوب، فإنّنا لا نتحدّث عن حوار غربي/ غربي، ولكن عن حوار غربي/ شرقي، ويفترضُ هذا الحوار رفض الشرق الانسياق وراء مشروع المجتمع الإنسانوي الذي يودّ الغرب تحقيقه، والسّعي نحو مقاومة الذّوبان في العولمة ومصائرها، فما مدى وعي العرب بضرورة الانحياز لمرجعياتهم الحضاريّة؟ وما هي أشكال المقاومة التي يبديها العرب ضدّ العولمة، من أجل الانتصار للذّات؟ وما هي المخاطر والانزلاقات التي تتهدّد الأمّة العربيّة إذا هي انساقت وراء العولمة بدعوى التّنوير والتّحديث؟ وفي الأخير، هل يملك العرب بديلا عن العولمة لتحديث

مجتمعاتهم والنّهوض بها وليتبوؤوا المواقع الدّوليّة التي تليق بتاريخهم العريق؟

تلك هي أسئلة هذه الدراسة التي نحلل في مطلعها مبدأ التنوع الثقافي في حياة أمم وشعوب اليوم، ثم نحلل ببعض التفصيل المركزيّة الغربيّة، وأثرها على العلاقات بين الشّرق والغرب، ورفضها لآخريها، ولمبدأ الاختلاف الثقافي، باعتباره اعتراضا على كونيّتها. ثم نعرج على مخاطر العولمة على الثقافات الأقلّويّة، لننهي المقال بحوصلة لأهم نتائج البحث.

1-التنوّع الثقافي في عالمنا المعاصر:

1/1انفتاح الحدود وتهجين الثقافات:

مع انفتاح الحدود السياسيّة بين الشرق والغرب، ومع الانفجار الإعلامي المتحقق بفضل الانترنيت، لم يبق أيّ شعبٍ من شعوب العالم مبعدا عن التحولات الاجتماعيّة والثقافيّة التي تعيشها البشريّة اليوم، أضحت الثقافات متداخلة ومتشابكة ومعقّدة بحيثُ يتعذّر الحديث عن أيّ توصيف جوهراني للثقافات، كأن نقول هذه ثقافة فرنسيّة وهذه أمريكيّة والأخرى شرقيّة، وهكذا، فالأفكار كائنات مهاجرة ومرتحلة ومتغيّرة باستمرارٍ، وما هو أصيلٌ اليوم قد يصبحٌ هجينا غدا، وما هو مسلّمٌ به الآن، قد يوضعُ موضع التساؤل في طرفة عينٍ، إنّ عالمنا اليوم «هو عالمٌ من المشاركة والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها ونزاعاتها من الثراء الفتّان ما يمتلكه التاريخ الإنساني عينه»[1]، لقد تقطّعتْ الحدود القوميّة والسياسيّة في وجه الثقافات العابرة للحدود، وغدا العالم قرية واحدة، لا يكاد يحتاج فيها الغريب إلى مترجمٍ.

يبدو المفكر الفلسطيني الحديث ادوارد سعيد «مناوئا شرسا للهويات المتصلّبة والانفصاليّة التي تصنف نفسها نقيضا للآخر وتقيم الحواجز بينها وبين العالم سواء أكانت هذه الهويّات تتحدّد في سياسات الهوية عند المرأة أم عند الذكر، أو الغربي أو العربي، أو الإسلامي أو المسيحي، أو اليهودي، فهو يرى مفهوم الهويّة

(1) إدوارد سعيد، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الثالثة 2004، ص11.

سكونيّا ويبحث عن الطاقات التي تحرر النفس والثقافة منه»[2]، يبدو أنّ الوضع الثقافي الهجين لإدوارد سعيد جعله يرفض الحواجز الإيديولوجيّة المتصلّبة بين الثقافات والهويّات المتعدّدة، فعالمنا لا يتحمّل الحدود ولا القيود، إنّه عالم منفلت ومتفجّر إلى الحدّ الذي يتعذّرُ التحكّم في شكله ومساره.

ما يمكن تأكيده بهذا الخصوص، هو أنّ الثقافات تتغيّر باستمرار، وما لا يقبل التغيّرُ فإنّه معرّض للموت، مثل اللّغات، تُعتبَر اللّغة اللاتينيّة لغة ميّتة، وقد تعرّضتْ لذلك المصير لعدم قدرتها على التغيّر، وكذلك الأمر بالنّسبة للهويّة الوطنيّة؛ فهي هويّة مكتسبة، وليست مولودة مع الإنسان، يولدُ الإنسان إنسانا، آدميّا ثم يكتسبُ هويّة وطنيّة ولغة تخاطب، ونمط عيش، وعندما يكبر يمكنه أن يغيّر ولاءه لوطن آخر، أو لديانة أخرى، أو لنمط عيش آخر، يقول رائد الكوسموبوليتيّة في هذا السياق، جون جاك روسو: «لو كنتُ أعرفُ شيئا مفيدا لأمّتي ومهدّدا لأمّة أخرى، فإنّي لم أكن لأعرضه على أميري لأنّي إنسانٌ قبل أن أكون فرنسيّا، لأنّي حتما إنسانٌ، ولستُ فرنسيّا إلاّ بالمصادفة»[3]، الولاء للوطن إذا من العناصر غير الثابتة في الثقافات الإنسانيّة، مثله مثل اللّغة.

ومن أجل هذا نؤكّد أنّ الثقافة باعتبارها -مجموع خصائص الحياة الاجتماعية، وطرق العيش والتفكير الجماعيين، وأشكال تنظيم الوقت والفضاء-[4]، تتغيّر باستمرار وفقا للتحولات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، غير أنّه يمكننا أن نستثني العقائد السماويّة الثابتة من التغيّر، فالقرآن الكريم ثابتٌ منذ قرون، وتشريعاته لا يطالها التّحريف، وذلك لا يمنع أنّ الثقافات المكتسبة والدّنيويّة تتغيّر دون أن يؤثّر ذلك على العناصر الجوهريّة والثابتة في الهويّة الفرديّة أو الجماعيّة، «لقد تحدّث مونتيسكيو عن روح الأمّة، وتطرّق فيبر لنفس الموضوع بالحديث عن الخاصيّة الوطنيّة للشّعوب؛ ويبدو أنّ مصطلحي **الروح** و**الخاصيّة** تحيلان بقوّة على عنصر يظلّ ثابتا في صلب واقع متغيّر أكثر ممّا تحيلان لصيغ اجتماعيّة ثابتة»[5].

(2) كمال أبو ديب، في تقديمه لكتاب (الثقافة والامبرياليّة) المذكور أعلاه.

(3) تزفيتان تـــودوروف، نحن والآخرون، ترجمة حمّود ربى، دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى 1999، ص 213/212.

(4) انظر تزفيتان تودوروف، نحو رؤية جديدة لحوار الحضارات، ترجمة وتقديم محمد الجرطي، منشورات المتوسط/ ميلانو، ط الأولى 2015، ص69.

(5) فيليب ديريبارن، التفكير في تنوّع العالم، ترجمة محمد الهلالي، دار توبقال للنّشر والتّوزيع، المغرب، ط الأولى 2011، ص35.

1/2-عواقب الانفتاح:

غير أنّ للفرنسيين رأيا آخر. يذهبُ تودورف أنّ التواصل بين الثقافات وزوال الحدود بينها من شأنه أن يزيل الاختلافات، ويؤدّي ذلك إلى تشميل الثقافة، الأمر الذي يهدّد الثقافات الأقلّويّة بالاندثار أمام الامبرياليّة الثقافيّة التي يمارسها الغرب على آخريه، وفي كلّ مجالات المعرفة، «إذا تسارع التواصل تمحى الاختلافات ويتمّ التقدم نحو تشميل الثقافة، أي نحو تعميم ثقافة على حساب الثقافات الأخرى»[6]، وستكون القارات المهمّشة هي ضحيّة الحدود المفتوحة واندماج الثقافات العالميّة فيما بينها، إنّ المحافظة على مسافة معيّنة من الآخر بإمكانها أن تمنع الذّوبان والتلاشي، فالعزلة تقتل الثقافات وتتلف روح الإبداع، وتدفع إلى الانكفاء على الذّات، ويتوقّف التطوّر، وهي الحالة التي تسهّل استعمار الشّعوب. «إنّ العزلة تقوقع الثقافات والمجتمعات، وسواء فرضت من الخارج أم تمّتْ المطالبة بها من طرف هذه الثقافات، تبقى مواقف أكثر قربا من قطب البربريّة، بينما الاعتراف المتبادل بينها هو خطوة نحو الحضارة»[7]، الحضارة إذا هي العيش المشترك، «لقد جعل فلودفينغ فويرباخ في كتابه، «مبادئ فلسفة المستقبل» من التواصل بين البشر والمجتمع الإنساني تعريفا للإنسانيّة»[8] في مقابل مجتمع الحيوان، الذي لا يملك ذاكرة، ولا ثقافة، لأنّه يعيشُ على الطّبيعة، من أجل ذلك فقد أظهر كبار الروائيين الأوروبيين الإنسان مرتبطا في كلّ مراحل حياته بالآخرين، «فالوجود البشري هو أساسا وجود جماعي في طابعه، فبدون الآخرين لا أستطيعُ أن أوجد»[9]، إنّنا لا نعرف قطّ مدرسة أفضل ولا أرقى لتشكيل الوعي الاجتماعي والحسّ الإنساني من العرض المستمر على الروح لعدد من تنوع الحيوات الأخرى، وتمكين الرّوح من أن تتذوّق مثل هذا التنوّع الدّائم من أنماط طبيعتنا، ولا يمكن أن نستمتع بهذا المعبد الإنساني في ظلّ الانغلاق بدعوى المحافظة على الهويّة،

فالعزلة تقتل الثقافات وتتلف روح الإبداع، وتدفع إلى الانكفاء على الذّات، ويتوقّف التطوّر، وهي الحالة التي تسهّل استعمار الشّعوب

(6) تزفيتان تــودوروف، نحن والآخرون، ص90.

(7) محمد الجرطي، تزفيتان تــودوروف/ نحو رؤيــة جديدة لحوار الحضارات، ص77.

(8) تزفيتان تــودوروف، الحياة المشتركة، ترجمة منذر العياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 2009، ص67.

(9) محمّد بهاوي، في فلسفة الغير، أفريقيا الــشّــرق، الــدّار البيضاء، ط الأولــى 2013، ص 67.

توجد بدائل كثيرة للعيش المشترك والمفتوح دون محاذير.

إنّ مبدأ الهويّة الصلبة هو مبدأ سكوني، «كان يشكّل لباب الفكر الثقافي في العهد الامبريالي»[10]، كان فلاسفة الغرب العنصراويون أمثال رينان وجوبينو وموريس باريس يدعون للإبقاء على مسافة الأمان بين الأوروبيين والملوّنين، لأنّهم أعراقٌ دونيّة وبإمكانهم تسميم المركز بفيروس الرّذيلة، وبإمكانهم الإساءة للحضارة العالميّة التي صنعتها أوروبا خلال قرون مديدة، ولا تزال تذهبُ بها أبعد من الخيال، في الوقت الذي لا تزالُ تلك الأعراق تجرجرُ هزائمها الثقافيّة خلفها.

(10) إدوارد سعيد، الثقافة والامبرياليّة، ص23.

مبدأ الهويّة الصلبة هو مبدأ سكوني، «كان يشكّل لباب الفكر الثقافي في العهد الامبريالي

في بيبليوغرافيا الأدب العالمي في القرن التاسع عشر، لا يظهر أيّ اسم لأديب من القارات المهمّشة، واكتفى مؤرخو الأدب الأوروبيّون آنـذاك بكتاب غربيين، وفي طليعتهم كتاب اليونان والرومان: هوميروس وفرجيل ومن بعدهم نجد دانتي وملتن وشكسبير وغيرهم من أدباء النهضة وما بعدها. بينما يرفض المفكر الألماني جوته هذا الإقصاء ويدعو إلى قراءة الأدب الشرقي لأنّ العالم أكبر من أوروبا، ولمثل ذلك دعتْ مادام دوستايل الناقدة الفرنسيّة الحديثة التي أقامت سنوات في ألمانيا ودرست أدبها وفلسفاتها، ودعت الفرنسيين إلى تقبّل الآخر وإثراء الثقافة الوطنيّة بثقافات الجوار، من خلال كتابها الشّهير «عن ألمانيا»؛ إنّها الطّريقة الوحيدة لتحقيق العالميّة، «تقوم الكونيّة الحقيقيّة على التّسامح والمنافسة، والقبول بالتّعايش والتنافس السلمي بين الأفكار وبين الثروات الثقافيّة؛ ما يسمح بالحلول مكان لعبة العنف والقوّة؛ وسيكون ذلك نتيجة حركة تقارب مزدوجة»[11]، وثنائيّة، من قبل كلّ من الشرق والغرب، إنّ حاجة العرب للغرب ليستْ أقلّ ولا ألحّ من حاجة الغرب إلى الشّرق، ولقد كانت الحضارات الإنسانيّة التي تعاقبت على منطقتنا هجينة، ومتشابكة، ومختلطة، عبر المسالك التجاريّة والحركات الثقافيّة، في الاتّجاهات المتبادلة، إنّ التماس الثقافي يجدُ طريقه

(11) جيرار لوكلارك، العولمة الثقافيّة، ص391.

إلى التحقق والإخصاب حتّى في حالات الحروب، وأفضل مثالٍ عن ذلك الحروب الصّليبيّة على ما يقال بحقّها من طابعها الاستعماري، لم تكن تخلو من لحظات صفاء وتقارب، وتمازج، أثمر هجرة العلوم الإسلاميّة إلى جامعات أوروبا في القرون الوسطى، التي كانت في عداد الجامعات الأكثر تخلفا في العام آنذاك.

2-المركزيّة الثقافيّة:

2/1-في المفهوم:

المركزيّة الثقافيّة أو المركزيّة الإثنيّة هي الاعتقاد الراسخ أنّ ثقافتي القوميّة والوطنيّة هي الأفضل على وجه الإطلاق، وأنها طليعة الثقافات الإنسانيّة، ومحورها، وما هو خارجها مجرّد هوامش أو بقايا لا يُعتدّ بها، إنّ هذا الاعتقاد نابعٌ من شعور طفولي، في الأساس، فالطفل في مراحل نموّه الأولى وبداية احتكاكه بالعالم الخارجي يعتقدُ أنّه مركز العالم، وأنّ كلّ من يحيط به ملزمٌ بالاحتفاء به باعتباره كذلك، أي محور الوجود، وهنا لا بدّ من التعقيب على مفارقة لافتة، «ثمّة مفارقة أوروبيّة تكمن في التناقض بين نهائيّتها الجغرافيّة والتاريخيّة، وبين كونيّتها الثقافيّة (العلميّة والتّقنيّة)، من الواضح كليّا أنّ أوروبا لم تعد مركز العالم»[12]، حتّى وإن اعتقدتْ العكس، فبعد الحرب العالميّة الثانية، وانسحابها من مستعمراتها القديمة، احتلّتْ أمريكا المشهد الثقافي والاقتصادي والعسكري، وأضحتْ أوروبا في نظر الأمريكيين القارة العجوز، غير أنّ موقف الاستعلاء على شعوب مستعمراتها، وشهوة الهيمنة عليها بأساليب جديدة لا تزال تسم موقف أوروبا من العرب والمسلمين، فالعلاقة بينها وبين شعوب إفريقيا لا تزال إلى اليوم علاقات قوّة وهيمنة، المركزيّة الإثنيّة ذات بعد فكري ولكن لها واجهة أخلاقيّة، «الإيمان بالتفوّق الذّاتي على الآخرين، احتقار الغير، أو الخوف من الغريب»[13]، وبسبب هذه المشاعر العدائيّة تجاه الغرباء تكثر الممارسات العنصريّة في أوروبا ضدّ الأجانب، إنّ مصدر كراهيّة الأجنبي والخوف منها فيما نعتقد هو مؤسسة الاستشراق التي شرقنت الشرق، وصنّفته مكانا للجهل

(12) جيرار لوكلارك، العولمة الثقافيّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط الأولى 208، ص308.

(13) م. ن. ص387.

والتخلف والبربريّة، والهمجيّة والإرهاب، وظلّت هذه التّمثيلات الرّهابيّة مسيطرة على الخطاب الرّحلي والخطاب الاستشراقي والبحث الانثروبولوجي طيلة حقبة التّنوير. وكان لهذه التمثيلات الدّور الأكبر في تسويغ الاستعمار وجعله تصرفا حضاريّا.

يدعو كلود ليفي شتراوس، الانثروبولوجي الفرنسي إلى استبعاد الأجانب، نظرا لما يسبّبونه من ضرر جسيم على الثقافة المحليّة في المركز، يجادل كلود «أنّ التآلف هو الخطوة الأولى نحو زوال هذا التنوع، من الأفضل أن يبقى كلٌّ في موطنه وأن نجهل الآخرين بدلا من أن نعرفهم أكثر ممّا ينبغي، من الأفضل ردّ الأجانب إلى خارج حدودنا بدلا من رؤيتهم يجتاحوننا ويحرموننا من هويّتنا الثقافيّة»[14]، يعيش الغرب على رهاب الإسلام، وهم يشاهدون يوميّا الأقليّات الإسلاميّة تقتحم الغرب وتشيّد المساجد، وتدعو إلى أسلمة أوروبا، إنّهم يرون رأي العين أنّ بعض الفئات العالمة والشعبيّة -إلى حدٍّ ما- من الأوروبيين يقبلون على الإسلام ويتحوّلون إلى دعاة فاعلين لهذا الدّين، وذلك يغيظهم وينمّي فيهم رهاب الأجانب.

(14) تزفيتان تـودوروف، نحن والآخرون، ص 90.

عاش الغرب دوما على فكرة التفوق على الشرق والشرقيين، وكان دأبه ازدراء الثقافات غير الأوروبيّة ووسمها بالخرافيّة والدّونيّة

لقد عاش الغرب دوما على فكرة التفوق على الشرق والشرقيين، وكان دأبه ازدراء الثقافات غير الأوروبيّة ووسمها بالخرافيّة والدّونيّة، بل إنّ المستشرق البريطاني بلفور يذهبُ إلى أنّ رفّا واحدا من رفوف مكتبة ملكيّة أفضل ممّا كتبه العرب كلّهم منذ أن كانوا يكتبون.

2/2-في النّشأة:

من ناحية أخرى، يبرّر الفيلولوجي الفرنسي ارنست رينان استعلاء أوروبا على أغيارها، ويرجع ذلك إلى أسباب عرقيّة، لقد مضى يقول بفخر ممجوج: «نحن الإنسانيّة لأنّنا ننتجُ العلم...نتمسّكُ بالأخلاقيّة لأنّ العروق الشّريفة تستطيعُ وحدها أن تكون عروقا علميّة»[15]، يشير رينان بمقولته تلك إلى الثورة الصّناعيّة والتكنولوجيّة اللتين ظهرتا في أوربا دون غيرها من القارّات، ولكنّه يُغْفِلُ جهلا أو تجاهلا القرون

(15) م. ن. ص140.

الوسطى عندما كانت أوروبا تلميذا لدى المسلمين، ويعقّبُ كلود ليفي شتراوس على عقيدة التفاوت العرقي التي يبرّر بها رينان السّيادة الأوروبيّة على العالم قائلا: «فلنكن واثقين إذا، أنّ الثّورة الصّناعيّة لو لم تظهر أوّلا في أوروبا الغربيّة والجنوبية، لكان لها أنْ تظهر يوما ما، في نقطة أخرى من الكرة الأرضيّة»[16]، يهدمُ ليفي شتراوس المركزيّة الغربيّة من أساسها بهذا الموقف المحايد من تطوّر الحضارات، فالقابليّة للتطور تلازم كلّ المجتمعات دون أي اعتبارٍ للعرق.

تملك أوروبا مشروعا فكريّا، منبثقا عن فلسفات التنوير، وهو جمع شعوب العالم كلّها تحت عباءة أوروبا الغربيّة، وضمن رؤية إنسانويّة للتاريخ، يدّعي فلاسفة الأنوار أنّه بالإمكان تشكيل مجتمع دولي خالٍ من الكراهيّة ومن العنصريّة، وبدون حروب، غير أنّه، وفي الوقت الذي كان مونتسكيو وروسو وكانْتْ وكارل ماركس وبقيّة مفكّري التنوير، بينما كان هؤلاء يشيدون هرمهم الإنسانوي، كانت الحكومات الأوروبيّة تدمّر شعوب مستعمراتها وتبيدهم كما تباد الأعشاب الطّفيليّة من المزارع، كما كانت تنقلُ العبيد من إفريقيا إلى أمريكا لأعمال السّخرة، كلّ ذلك تحت ذريعة المهمّة التّحضيريّة وتأهيل كلّ شعوب العالم للعيش المشترك والآمن، يعتقد أصحاب نظرية النقاء العرقي، أن الأوروبيين، قد حبَتْهم الطّبيعة بكلّ صفات النّبل والذكاء والتفوق على الأعراق الشرقيّة، ومن المروءة أن يسعى الأوروبيّون لحكم البرالبرة من أجل تشذيب شذوذيّتهم وترقية مهاراتهم وتطوير ذكائهم وهدايتهم إلى الدّيانة المسيحيّة، وهي في نظرهم التّظاهرة الثقافيّة العليا في التاريخ الإنساني، إنّ فكرة تحرير الإنسان المتخلّف هي إحدى المشاريع المنبثقة عن التّنوير، والمفضية إلى استعمار الشّعوب، «يعتقدُ الرّجل الأبيض أنّ النّسخة الغربيّة المميّزة للإنسانيّة يجبُ أن تنطبق على كلّ شخصٍ آخر، وهذه بالفعل هي إحدى الطّرق التي تمّ بها نشر فكرة الشّمول العالمي، ومن هنا نجد أنّ اعتراض ما بعد الحداثيين عليها له ما يبرّره»[17]، إذْ أنّ فلسفات ما بعد الحداثة وفي طليعتها تفكيكيّة ديريدا، تقوّضُ

(16) كلود ليفي شتـراوس، مقالات في الإناسة، ترجمة حسن قبيسي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى 2008، 203/202.

(17) تيري إيجلتون، أوهـام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مركز اللغات والترجمة-أكاديميّة الفنون، ط الأولى 1996، 198.

الميتافيزيقا الغربيّة، وتسقط كلّ أشكال التمركز الأوروبي، التمركز حول الـذّات، وحول العقل، وحول الصّوت، والملاحظ أنّ كلّ المركزيّات وفي مقدّمتها المركزيّة الإثنيّة هي عقيدة ميتافيزيقيّة، لا يُسندها أيّ بحث علمي جاد، «إنّ فكرة السّموّ الأوروبي، وفكرة امتداديّة أوروبا، وفكرة أوروبا مركز العالم، ستفرضُ نفسها في القرن الثامن عشر، بحيثُ تصبحُ أوروبا حسب دوفيز الوسيط للتقدّم الكوني»[18]، وإنّها أساطير العقل الغربي، وأوهامه وأحلامه الطّفوليّة. إنّ القوة الماديّة والتكنولوجيّة لأيّ دولة لا تخوّلها حكم العالم تحت الإكراه، كما لا يحقّ لأيّ امبراطوريّة أن تفرض رؤيتها للعالم باعتبارها رؤية كونيّة، إنّ عالمنا متعدد الأقطاب، ومتنوّع الثقافات، والواقع أنّه لا توجد ثقافة متخلّفة وأخرى متطوّرة، ولكن الإنسان دأب على سوء تقدير الثقافة التي لا تقع في مجاله الإدراكي، وبذلك يغدو، من لا يفهم لغتي ولا ينطقُ بها بربريّا، وتغدو عاداته وتقاليده وطقوس حياته مثيرة للغرابة والغموض وأحيانا نراها فاقدة للمعنى.

تقدّمت أوروبا بمشروع سياسي يقوم على أساس تجانس كلّ شعوب العالم، وفرضته بالقوّة من خلال استعمار الشّعوب في القرون الثلاثة الأخيرة، يقتضي هذا المشروع تخلّي الشّعوب غير الأوروبيّة عن مرجعيّاتها الحضاريّة وعن أنماط عيشها وتبني الثقافة الغربيّة القائمة وفق زعم الأوروبيين على العقل والعلم. وقد فشل هذا المشروع مع إزاحة أوروبا عن مستعمراتها، وتصدّر أمريكا للواجهة الدّوليّة، ونعيش اليوم نفس المشروع الأوروبي ولكن بزعامة أمريكا، غير أنّ هذه الأخيرة لا تحمل نفس المنظور للشّعوب غير الأمريكيّة. إنّها لا تصنّف الأجانب على أساس العرق، ولون البشرة، كما تفعل الكولونياليّة الأوروبيّة، بل على أساس المعامل الاقتصادي، «تعمل الهويّة الكولونياليّة قبل كلّ شيء عن طريق منطق ثنوي (مانوي)، قائمٌ على الإقصاء والاستبعاد، (....)، يجري إقصاء المستعمرين عن الفضاءات الأوروبيّة، ليس فقط على الأصعدة الماديّة والإقليميّة، وليس فقط من حيثُ الحقوق والامتيازات، بل حتّى على مستويات

(18) عبد الله إبراهيم، المركزيّة الغربية، الـدار العربية للعلوم، نـاشـرون، بـيـروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر/ دار الأمان، الرباط، ط الأولى 1997.

الفكر والقيم»، بينما تحتوي الامبراطوريّة الأمريكيّة كلّ آخريها، وتدمجهم في آلة الإنتاج، وتُجَمِّد

إلى حين كلّ معايير التّصنيف الإيديولوجي والبيولوجي، باعتبارها أساطير العقل الأوروبي.

3-محاذير التواصل الثقافي والعولمة:

3/1-مخاطر العولمة:

تدعو السياسات الثقافيّة للدّول العظمى إلى فتح الحدود القوميّة أمام مشاريع التواصل الثقافي والاقتصادي، ضمانا لمزيدٍ من التحرّر من قيود التجارة العالميّة والإكراه الإيديولوجي الذي تفرضه الجماعات الأصوليّة في كلّ المجتمعات، ومن الواضح للغاية أنّ هذه الدّعوات تصبو إلى عولمة الاقتصاد وتشميل الثقافة وتنسيب القيم ويخدمُ ذلك القوى الامبرياليّة العالميّة دون أدنى شكّ، وفق النظام الدّولي المعمول به اليوم، والذي تناضل أمريكا نضالاً مريراً من أجل المحافظة عليه، وكسر كلّ أشكال مقاومته في دول العالم الثالث، إنّنا نرى اليوم بوادر اشتعال حرب كونيّة قاتلة بين الأطلسي والقوى النّاهضة، والتي ترغبُ في تعديل النظام العالمي الذي قُدّ على مقاس الدول المنتصرة في أعقاب الحرب العالميّة الثانية، وغدا اليوم مجحفا بحقّ العديد من الشّعوب والأمم، إنّ التواصل بين الثقافات ظاهرة حضاريّة صحيّة، غير أنّه يُرادُ له أن يكون دون ضوابط ودون محاذير، فالذي يُخشى هو ذوبان الثقافات الأقلّويّة وتشتّت هويّات الشّعوب الأقلّ تطوّرا بفعل الامبرياليّة الثقافيّة التي تمارسها الثقافات المهيمنة، كالثقافة الأمريكيّة والأوروبيّة، من خلال عولمة الفرونكفونيّة والانجلوفونيّة، وإذا كان صحيحا أنّ العزلة تقتل الفكر واللّغة أو تضعفهما بشكل تدريجي، فإنّ الانفتاح المطلق وغير المنضبط أكثر خطورة من الانغلاق، إنّ غلق الحدود بالنّسبة للّغة القوميّة، وقمع كلّ أشكال التواصل مع الآخر، يمكن أن يؤدّي إلى الانكماش والتقلّص في مشاريع البحث العلمي والتحول الحضاري، ولكن الخيار المقابل لذلك يؤدّي إلى الذّوبان في الآخر وتشظّي

الهويّة الوطنيّة، وهذا ما تعيشه الذّات العربيّة اليوم نتيجة توزّعها بين الأصالة والارتماء في أحضان الغرب، وتبنّي نموذجه الحضاري دون تحفّظ، بل إنّ الاضطرابات الاجتماعيّة والسياسيّة التي تعيشها المجتمعات العربيّة اليوم تقف من ورائها أزمة هويّة خانقة، لقد جاءت ما بعد الحداثة بكلّ أدوات الهدم لكلّ ما هو أصيلٌ وثابتٌ ومركزي في الثقافة العربيّة، نتيجة تبنيّ الفلسفات التّفكيكيّة الغربيّة التي تهدم الثقافات دون اقتراح البديل، إنّها تهدم من أجل الهدم ومزيد من التّشكيك.

جاءت ما بعد الحداثة بكلّ أدوات الهدم لكلّ ما هو أصيلٌ وثابتٌ ومركزي في الثقافة العربيّة، نتيجة تبنيّ الفلسفات التّفكيكيّة الغربيّة التي تهدم الثقافات دون اقتراح البديل

3/3-أنصار التغريب والعولمة:

إنّ للغرب وكلاء سياسيين وثقافيين منتشرين في قلب المجتمعات العربيّة، ويعملون على تغريب مجتمعاتهم من خلال بدائل ثقافيّة متعدّدة، وفي مقابل ذلك تعلو أصوات المحافظين محذّرة من الانسياق وراء تلك المشاريع، وكثيرا ما يؤدّي هذا الجدال إلى الرّفع من منسوب العنف الدّيني والطّائفي والسياسي في المجتمع الواحد، ويعطّل من وتيرة النهضة الحضاريّة بشكل عام، الكثيرُ من رجال الفنّ والأدب الروائي والمسرح، يساهمون بشكل محموم في تغريب المجتمع العربي، والتخلص من بقايا الماضي الإسلامي، ولقد كانت البداية من روّاد النّهضة العربيّة المصريّة الذين تلقّوا تعليما جامعيّا في مؤسسات غربيّة، ودرسوا على أيدي مستشرقين فرنسيين بشكل خاص، واستوعبوا تفوّق الغرب الأبدي على الحضارة العربيّة، ولذلك كانت دعوة طه حسين إلى توسّم النموذج الغربي في مشروع التّنوير العربي، ومن ودونه فلا أمل في نهضة العرب، وهذه فكرة استشراقيّة وليدة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ويدّعي المستشرقون الفرنسيّون من خلالها أنّ نهضة العرب مشروطة بالتخلي عن تحيّزاتهم الدّينيّة والهويّاتيّة، ونبذ أساطير أجدادهم الأوّلين، وهكذا يتأكّد للجميع ما ذهب إليه نورمان دانيال (Norman Daniel) من أنّ الغرب «قد عاش باستمرارٍ الشّعور بتفوق عدواني ومهين تجاه

الإسلام»[19]، وما نعتبره أكثر إهانة هو أنّ أنصار التّغريب أشدّ عداء أحيانا لأصولهم الثقافيّة؛ ودعوتهم إلى تبنّي مشاريع التّنوير الغربي محمومة إلى حدّ الإدهاش، رغم علمهم أنّ الغرب لن يسلّمهم أسباب النّهضة، فالفكر ما بعد الحداثي «يرفضُ تحويل الآخر إلى المثل»[20]، ورغم الدّعوة المحمومة لقيم الدّيمقراطيّة والحريّة وحقوق الإنسان، وروح الحضارة الغربيّة وقيمها، فإنّ أوروبا تطوّرُ باستمرارٍ آليّات طرد واستبعاد تمنع الآخرين من الاندماج مع الغرب والتّساوي معهم في الحقوق والواجبات والكرامة الإنسانيّة.

(19) جيرار لوكلارك، العولمة الثقافيّة، ص393.

(20) ليندا هتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة ميشال زكرياء، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ط الأولى 2009، ص121.

لقد راهنت الدّولة التّركيّة منذ إلحاقها بالناتو على الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبي، ولقد تجاوبت مع شروط الأوربة بكثيرٍ من الحماس، ولكنّها لم تنل شيئا، لأنّ بقايا الشّرق كانت لا تزالُ عالقة بأنفاس الأتراك، لكأنّهم جنسٌ هجينٌ، لا يليق بأوروبا استضافتهم، لقد دأب الغرب على ازدراء الثقافات التي لا تتماشى مع مجال إدراكه، ولا تنسجمُ مع مخياله الرّمزي المريض بالتعالي على آخريه.

أخطر محاذير العولمة هو تفتيت الثقافة الوطنيّة، وتراجع الاهتمام بها إلى مرتبة دنيا

إنّ من أخطر محاذير العولمة هو تفتيت الثقافة الوطنيّة، وتراجع الاهتمام بها إلى مرتبة دنيا، كما أنّ الانسياق وراء تدنيس المقدّسات باسم حريّة الإبداع لدى الروائيين العرب لا تخلو من خطورة على مسخ الذّات العربيّة والوطنيّة، واندفاعها باتّجاه المركز، لتكون عبدا ذليلا أمام الرّجل الأبيض، وهو ما يحصل اليوم للعرب والأفارقة المهاجرين إلى المركز الحواضري، عبر كلّ السبل المتاحة وغير المتاحة، بحثا عن عيشٍ كريمٍ. وإذا كانت الحكومات الغربيّة زمن الاستعمار الكلاسيكي تحتلّ الأرض وتستعبد أصحابها من الأصلانيين، فإنّها اليوم تعمدُ إلى إثارة الحروب الأهليّة والقلاقل والاضطرابات الاجتماعيّة في بلاد «البرابرة»، ليندفع المهمّشون والمنبوذون والمطرودون من أوطانهم، إلى الهجرات الجماعيّة طلبا للّجوء السياسي، أو العمل أو السّخرة غير المعلنة، وهذا الذي يحصل في بلاد الشام وفي ليبيا وكلّ مناطق ما تسمّيه الامبرياليّة

الأمريكيّة **الفوضى الخلاّقة**، وفي مرحلة لاحقة يتمّ دمجُ البعض من هؤلاء الفارّين من أوطانهم في الاقتصاد الأوروبي بأثمان دنيا وبأقلّ الحقوق، ويمكن أن تُسْتَغلّ النّخب العالمة من المهاجرين في مهامّ مشبوهة من قبل الحكومات المستضيفة، فالغرب يعتمد على مثل تلك النّخب لتشكيل كتل سياسيّة معارضة للحكومات الوطنيّة المارقة، ويستبقيها عنده لوقت الحاجة.

من محاذير العولمة أيضا تهجين الثقافات الوطنيّة وأنماط العيش في الدّول التابعة للغرب، والمنفتحة إلى حدّ الذّوبان. توجد مجتمعات غير أوروبيّة، عربيّة أو إفريقيّة أو آسيويّة، لا تكاد تميّزها، من ملامحها الخارجيّة عن بلد أوروبي، ليس من حيثُ المرافق الحضاريّة ومظاهر الحداثة والتّحديث، ولكن من حيثُ نمط العيش، والرموز الثقافيّة المهيمنة، وزوال الحدود بين الرّجال والنساء، وتدنيس مقدّسات المجتمعات العميقة المحافظة باسم الحداثة. وتتميّز تلك البلدان بالدّنيويّة الفجّة (Sécularism)، وبالتحرر من الأعباء الميتافيزيقيّة التي يقتضيها الانتماء إلى الأديان، وبالماديّة السائلة، حيثُ تبدو الهويّات «هشّة، وضعيفة، وتمزّقها على الدّوام قوى أخرى تُظْهِرُ حقيقة ميوعتها، وتقطّعها تيّارات متداخلة، تهدّد بتمزيقها إربا إربا وتمحو أيّ شكلٍ ربّما تكتسبه»[21]، إننا نعيش عصرَ تلاشي الهويّات والخواف (Angoisse)، والقلق الوجودي النّاجم عن حالة عدم الاستقرار لا في المكان ولا في الزمان، وهو عصر تتعدّد فيه الحقائق ويضعف اليقين في الخلاص الذي كانت السرديّات الكبرى تعد به من خلال الثورات العلميّة، ونبذ الأديان، والإيمان المطلق بالعقل، «فكون المرء من أهل الحداثة، صار يعني مثلما يعني في أيامنا هذه كون الإنسان غير قادرٍ على التوقّف، بل وأقلّ قدرة على أن يظلّ على حاله، إنّنا نتحرّكُ ولا مناص لنا من الحركة الدّائمة، ليس بسبب إرجاء الإشباع كما اعتقد ماكس فيبر، بل بسبب استحالة الإشباع التام»[22]، هذه هي نتائج عمليّات التغريب المنظّمة التي يضطلعُ بها الفرونكفونيّون في شمال إفريقيا، وإفريقيا

(21) زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، نرجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنّشر، بيروت، ط الأولى 2016.، ص139.

(22) م. نفسه، ص74.

بشكل عام، مسخٌ ثقافي لا شفاء منه، واضطرابات اجتماعيّة طافحة تنهش وحدة الأمّة العربيّة، وتعمل على حرمانها من بعدها الحضاري المشرق، من أجل قتل سرديّات المقاومة في مهدها.

لا شيء من وعود التنوير يتحقّق، ولا أمل في انعتاق الإنسان العربي في ظلّ النظام الكولونيالي والامبرياليّة العالميّة التي سحقتْ كلّ الثّقافات الأقلّويّة وابتلعت كلّ مشاريع المقاومة في المنطقة العربيّة.

الخاتمة:

*لقد بدا لنا من هذه الدّراسة المتواضعة، استحالة مشروع الحياة المشتركة المتوازنة التي دعا إليها المفكّر الفرنسي المعاصر، وصاحب الأصول البلغاريّة، «تزفيتان تودوروف»، في كتابه «**الحياة المشتركة**»، وذلك بسبب النظام الكولونيالي الذي تفرضه الامبراطوريّة الأمريكيّة بالقوّة العسكريّة المنتشرة في كلّ بحار ومحيطات العالم، لترهيب مشاريع المقاومات المحليّة والوطنيّة.

*إنّ قيم حسن الضيافة والتسامح وقبول الآخر ومبدأ الاختلاف الثقافي، والمثاقفة المتكافئة كلّ ذلك خطابٌ يتعذّرُ تحقّقه؛ فالغرب ليس مستعدّا للتنازل عن مصالحه الكولونياليّة، في مستعمراته القديمة، وأمريكا غير مستعدّة للتنازل عن قيادة العالم والتحكّم في مصائر الشّعوب المستضعفة.

*تدعو المركزيّة الغربيّة آخريها إلى الذّوبان في نموذجها الحضاري، باعتبارها صانعة الحضارة العلميّة. ويؤكّد المثقفون العرب هذه الدعوة ويناضلون من أجل تغريب مجتمعاتهم؛ بينما يطالب آخرون بتطوير سرديّات المقاومة، والانتصار لمناطق القوّة التي يتوفّر عليها تراثهم الثّقافي ومرجعيّاتهم التاريخيّة العريقة، بهدف استرجاع هويّتهم الحضاريّة المشرقة، والتصدّي لرياح العولمة، والنّفوذ الثقافي للغرب.

* إن العزلة تقتل الثقافة، ولذلك يجب رفض الانغلاق على الذّات وغلق أبواب الحوار مع آخرينا. بل يجب أن نتحاور مع الغرب من

موقف النديّة، والمصالح المتبادلة. فلا أحد ينكرُ أنّ أوروبا وأمريكا، غدتا مركز إشعاعٍ علمي، لا غنى عنه للعرب.

* لا أحد ينكرُ اليوم أنّ الغرب بشكلٍ عام ليس المصدر الوحيد للمعرفة. فالحضارة العالميّة هي جهود بشريّة مشتركة بين جميع الشّعوب، ولا يحقّ احتكارها من أيّ جهة، أو جعلها محلّ مساومات سياسيّة.

المراجع

1- إدوارد (سعيد)، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الثالثة 2004..

2- تزفيتان (تـودوروف)، نحن والآخرون، ترجمة حمّود ربى، دار المدى للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى 1999..

3- = نحو رؤية جديدة لحوار الحضارات، ترجمة وتقديم محمد الجرطي، منشورات المتوسط/ ميلانو، ط الأولى 2015.

4- = الحياة المشتركة، ترجمة منذر العياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 2009.

5- تيري (إيجلتون)، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مركز اللغات والترجمة-أكاديميّة الفنون، ط الأولى 1996.

6-جيرار(لوكلارك)، العولمة الثقافيّة، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط الأولى 2008.

7-- ديريبارن (فيليب)، التفكير في تنوّع العالم، ترجمة محمد الهلالي، دار توبقال للنّشر والتّوزيع، المغرب، ط الأولى 2011.

8-- زيجمونت (باومان)، الحداثة السائلة، نرجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنّشر، بيروت، ط الأولى 2016.

9- عبد الله (إبراهيم)، المركزيّة الغربية، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر/ دار الأمان، الرباط، ط الأولى، 1997.

10-ليفي شتراوس (كلود)، مقالات في الإناسة، ترجمة حسن قبيسي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى 2008.

11- مايكل (هــاردت) وأونطونيو (نيغري)، امبراطورية العولمة الجديدة، تعريب فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، العربية السعوديّة، ط الأولى 2002

12- بهاوي (محمد)، في فلسفة الغير، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ط الأولى 2013.

13- هتشيون (ليندا)، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة ميشال زكرياء، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ط الأولى 2009.